ردمد: ISSN 2602-618X

أضواء على مجتمع حاحا زمن السعديين
من خلال مشاهدات الرحالة الإسباني لويس ديل مارمول كرباخال

الدكتور عادل بن محمد جاهل، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكَادير، المغرب

Lights of the Society of Haha in the Age of the Saadian State

through the Sightings of the Spanish Traveller
Luis Del Mármol Carvajal

Dr. Adel Ben Mohamed Jahal, University of Ibn Zahr, Faculty of Letters and Human Sciences, Agadir, Morocco
adil.jahil@edu.uiz.ac.ma

تاريخ الإرسال: 30/ 08/ 2019 **تاريخ القبول:** 30/ 09/ 2019 **تاريخ النشر:** 22/ 10/ 2019

الملخص باللغة العربية:

تهدف هذه الورقة، إلى تسليط الضوء على جانب من الرِّحلات الاستكشافية الإسبانية، لبلاد المغرب الأقصى، زمن الدولة السعدية، من خلال نموذج رحلة المستكشف والأسير الإسباني لويس ديل مارمول كرباخال، وتشتمل هذه الورقة، على مجموعة من المباحث، حاولنا من خلالها، التعريف بهذه الرحلة، وبصاحبها، وسياقها التاريخي، وأهم الأهداف التي جاء من أجلها صاحب الرحلة إلى المغرب، ناهيك عن الصور والانطباعات، التي خلّفها الرحالة المذكور، حول مجال إقليم حاحا.

الكلمات المفتاحية: إقليم حاحا؛ الدولة السعدية؛ الصورولوجيا؛ الرحلة الإسبانية؛ لويس ديل مارمول كرباخال.

Abstract: This paper aims to shed light on a part of the Spanish expeditions to the countries of the Maghreb during the time of the state of Saadia, through the model of the journey of the Spanish explorer and captive Luis del Marmul Carbajal. This paper includes a set of research topics, through which we try to introduce this trip, its owner, its historical context, and the most important objectives of the owner's trip to Morocco, not to mention the images and impressions left by the traveler mentioned about the area of the territory of Haha.
Keywords: Haha Province; Saadia State; photology; Spanish Voyage; Luis del Marmol Carbajal.

1. مقدمة:

تُشكل كتب الرِّحلات والجغرافية، على اختلاف أنماطها، وتباين مقاصدها، إطارا مرجعيا، لا غنى عنه بالنسبة للباحث، في حقل العلوم الإنسانية، خاصة لما لها من أهمية بالغة في دراسة التاريخ؛ لأنها تتضمن بحق، معطيات وتفاصيل، مهمة ودقيقة، عن الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والزراعية، والعسكرية، والعادات، والتقاليد، والمعتقدات، والطقوس، والمتخيل، وغير ذلك، من مظاهر النشاط الإنساني العام، يَنْدِرُ في بعض الأحيان، وجودها في المظان التاريخية التقليدية.

ويُعتبر كتاب (إفريقيا) للرحالة والمؤرخ الإسباني لويس ديل مارمول كرباخال، من بين الشواهد المصدرية التاريخية الأجنبية القليلة، التي أرّخت لإقليم حاحا، زمن الدولة السعدية، حيث تضمّن الكتاب المذكور، معلومات وبيانات، تُعتبر بحق، نادرة وثمينة ومثيرة، وقلّما تلتفت إليها المصادر المحلية، المكتوبة باللغة العربية، والمتميزة بالشح والابتسار، على صعيد عناصرها الإخبارية، وعليه يُمكن اعتماد كتاب (إفريقيا) للرحالة

المذكور، منطلقا رئيسيا في إعادة تركيب جزء من أحداث الماضي الحاحي، خلال الحقبة التاريخية المذكورة أعلاه.

فما هي الصُور التي رسمها الرحالة والمغامر الإسباني لويس ديل مارمول كرباخال عن حاحا والحاحيين؟ وإلى أي مدى تمكّن من تشخيص الواقع الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والديني للمنطقة المذكورة، خلال بدايات الفترة السعدية؟

2. لويس ديل مارمول كرباخال (حياته، رحلاته، مؤلفاته):

1.2. نبذة عن حياة لويس ديل مارمول كرباخال:

ولد الرحالة والمؤرخ الإسباني مارمول كاربخال، في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وتحديدا سنة 1520م، في مدينة غرناطة، أي بعد حوالي اثنين وثلاثين سنة من احتلالها من طرف الملكين الكاثوليكيين، فرناندو الثاني ملك أراغون، وإيزابيلا ملكة قشتالة[1]، وينحدر صاحب الترجمة من عائلة متوسطة الحال، حيث كان والده يشتغل كاتبا في محكمة غرناطة، أما والدته فلا نكاد نعرف شيئا عنها، بيد أن هناك معلومات تقول إنه ابن لزوجة غير شرعية، قد تكون الزوجة الثانية، الشيء الذي جعل محاكم التفتيش، تتهمه بأنه من أصول موريسكية[2].

وإلى جانب ما سبق ذكره، شارك رحالتنا وهو ما يزال في ريعان الشباب، في الحملة التي شنها عاهل إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية كارلوس الخامس على تونس

1 Pablo Ignacio De Dalmases, **Viajeros por El Sahara Español: Antología de relatos viajeros**, Madrid: Grupo Editorial Sial Pigmalión, Primera Edición, 2016, p.23.

2 مارمول كاربخال، **وقائع ثورة الموريسكيين**، (جزءان)، [ترجمة وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن]، القاهرة: المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2012، الجزء الأول، ص.8.

ردمد: ISSN 2602-618X

في عام 1535م[3]، التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية، حيث حضر احتلال هذه المدينة، وما جرى فيها من أعمال السلب والنهب، وهتك الأعراض، وتدنيس الحرمات، من طرف المرتزقة الصليبيين[4]، وفور مغادرة أسطول كارلوس الخامس الأراضي التونسية، بقيَ مارمول كرباخال في شمال إفريقيا، مدة اثنين وعشرين عاما، قصد التقصي والاستخبار، لفائدة الإسبان، وأثناء قيامه بهذه المهمات التجسسية في المغرب الأقصى، حيث نجهل الطريقة والكيفية، التي دخل بها إلى هذه البلاد، بيد أنه حسب بعض الدراسات التاريخية، تُبين أن كربخال دخل إلى المغرب من مدينة وهران، وبعد انكشاف نواياه التجسسية في مدينة تلمسان، أُسر من قِبل القوات التابعة للجيش السعدي، إذ بقيَ عندهم حوالي سبعة أعوام وثمانية أشهر، متنقلا معهم أين حلوا وارتحلوا[5]، وقد كانت هذه المدة، التي قضاها رحالتنا أسيرا لدى السعديين، فرصة مناسبة وثمينة له، لدراسة مجمل الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية، والثقافية، للمناطق المغربية التي مرّ منها، مثل: سوس الأقصى، وتارودانت، والصحراء، وفاس، ومراكش، وغيرها.

وجدير بالإشارة في هذا السياق، أن الرحالة كرباخال، قد عاصر حواليْ ثلاثة ملوك الدولة السعدية، وهم: أحمد الأعرج (1517-1544م)، ومحمد الشيخ المهدي

3 Pablo Ignacio De Dalmases, **Viajeros por El Sahara Español…,** op.cit., p.23.

4 مارمول كربخال، **إفريقيا**، (3 أجزاء)، [ترجمة محمد حجي وآخرون]، الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1404هـ/ 1984م، الجزء الأول، ص.4.

5 Ismet Terki-Hassaine, Historiographie espagnole moderne sur l'Algérie ottomane, In **Literatür Dergisi**, Cilt 8, Sayi 15, 2010, (pp.425-438), p.430.

ردمد: ISSN 2602-618X

(1517-1557م)، وعبد الله الغالب (1557-1574م)، وانطلاقا من ذلك، وصف عن مشاهدة ومعاينة، حربهم، وسلمهم، وخلافهم، ووفاتهم، وأفراحهم، وأتراحهم، وبخاصة علاقاتهم بمنافسيهم من الوطاسيين ملوك فاس وأتراك الجزائر[6]، وأثناء هذه المدة، قام كاربخال بتعلم اللغتين الأمازيغية والعربية[7].

وكيفما كان الحال، فإن الرحالة كرباخال استطاع أن يحرر كتابا مهما حول جغرافية وتاريخ إفريقيا، حيث دوّن فيه وَقائعَ عاينها، أو سمع أخبارها، من شخصيات شاركت فيها، إلى جانب هذا الكتاب، ألّف الرحالة كرباخال كتبا أخرى، منها: كتاب (وقائع ثورة الموريسكيين بغرناطة)، وكتاب (صلوات القسيسين الرومان)، وكتاب (إلهام الجيش المقدس)، توفي صاحب الترجمة في 13 نونبر 1600م، في نواحي مدينة مالقة[8].

2.2. كتاب إفريقيا (قراءة في قيمته العلمية، ومكانته التاريخية، ودوافع التأليف):

يُعتبر كتاب (إفريقيا) للإسباني كرباخال، من أهم كتب الجغرافيا والرِّحلات، التي ألّفها الأجانب عن تاريخ إفريقيا بشكل عام، والمغرب بشكل خاص[9]، هذا الكتاب الذي حرّره صاحبه باللغة الإسبانية (القشتالية)، صدر سنة 1573م في مدينة غرناطة، يتكون هذا الكتاب الضخم، من ثلاثة مجلدات، وكل مجلد من هذه المجلدات، ينقسم إلى أجزاء،

6 مارمول كربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الأول، ص.5.

7 نفسه.

8 Pablo Ignacio De Dalmases, **Viajeros por El Sahara Español…**, op.cit., p.24.

9 إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع في العصر السعدي**، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، طبعة 1408هـ/ 1987م، ص.11.

عالج فيها رحالتنا، كل ما يتعلق بتاريخ إفريقيا وجغرافيتها، وتحديدا مناطق مثل: شمال إفريقيا، والصحراء الكبرى، بما فيها النيجر، وإثيوبيا، ومصر، وغيرها.

وفي ذات السياق، نسجّل أن كتاب (إفريقيا) لكرباخال، قدّم قراءة أوروبية جديدة حول إفريقيا، مخالفة للقراءة الكلاسيكية الموروثة، فكانت قراءة متأثرة إلى حدّ بعيد بقراءة الرحالة المغربي الحسن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، ومستفيدة أيضا مما توصل إليه الملاحون والمستكشفون الإسبان والبرتغاليون، في القرن السادس عشر الميلادي، ورغم ذلك فقد كان لقراءة كرباخال مآخذ عدة، منها أنه لم ينس ذاتيته الأوروبية المتعالية، عند تناوله المسائل المغاربية، إضافة إلى تواضع معارفه بخصوصيات التاريخ السياسي للمنطقة، ورغم كل هذه الهنات، فإن عددا من الباحثين اختاروا التعامل مع كتاب كرباخال (إفريقيا)، وفضلوه على كتاب (وصف إفريقيا) للحسن محمد الوزان الفاسي؛ باعتبار أن معطيات المؤلف الأول، أكثر تحيينا من الثاني، خصوصا في موضوع تحولات النصف الثاني من القرن السادس عشر ببلاد المغارب[10].

اعتمد الرحالة كاربخال في تحرير صفحات كتابه، على مجموعة متنوعة من المصادر التاريخية والجغرافية، أبرزها كتاب (وصف إفريقيا) لمؤلفه الحسن محمد الوزان الفاسي، حيث اعتمد عليه كثيرا، بل ونقل منه فصولا عديدة، حرفا بحرف، كما أنه اعتمد على كتاب ابن الرقيق القيرواني، الموسوم بـ (تاريخ إفريقيا والمغرب)، ثم كتاب ابن الجزار، المعنون بـ (نوادر الزمان). أما عن دواعي تأليف كتاب (إفريقيا)، يقول الرحالة كاربخال في هذا الصدد: **"ولم يكن لي قصد في تأليف هذا التاريخ كله اطلاقا إلا تشجيع الدول**

10 عادل النفاتي، **المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغارب، حفريات في أدب الرحلة-القرن 16: في الهوية والتدين والثقافة**، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2015، ص.8.

ردمد: ISSN 2602-618X

الكاثوليكية على حمل السلاح ضد هؤلاء المسلمين الذين يكتسحون بوقاحة مجد المسيحية ولا يفتؤون يحاربوننا ويتحينون الفرص لتحطيمنا"[11].

ومهما يكن من أمر، فإن كتاب (إفريقيا) لكربخال يبقى رغم كل الهنات والانتقادات الموجهة له، من بين التصانيف المهمة والقليلة، التي حاولت دراسة مجال شمال إفريقيا، بكيفية أصيلة وعميقة[12]، من أجل تكوين مادة معرفية دقيقة للأوساط العلمية والاستكشافية والاستعمارية الإسبانية. وقد استفاد هؤلاء مما احتوى عليه هذا المُؤَلَّف الضخم، من بيانات متنوعة، ومعطيات عالية القيمة؛ كمّا ونوعا، كيف لا؟ وهو لامس جوانب كثيرة من تاريخ المنطقة المغاربية، وبنياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والدينية، والروحية، والعمرانية.

3. إقليم حاحا (الحدود والمظهر العام للمنطقة):

يُشير الرحالة والمؤرخ الإسباني كرباخال، أن مجال إقليم حاحا يقع في أقصى الجزء الغربي لمملكة مراكش، التي بدورها تقع في الجزء الغربي لبلاد البربر، حيث يحدّها من جهة الغرب (المحيط الغربي)، و(وادي سوس) في الجنوب، و(جبل الأطلس) في الشرق، و(نهر أم الربيع) في الشمال ، ويذكر رحالتنا أن إقليم حاحا يحتل جميع مجال الأطلس الكبير، الذي تُسميه ساكنة المنطقة المحليين بـ (أَيْتْ أُوكَالْ)، وجاء في متن الرحلة، أن إقليم حاحا يحده من جهة الغرب والشمال (المحيط الغربي)، ومن جهة الجنوب (جبال

11 مارمول كربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الأول، ص.12.

12 Ismet Terki-Hassaine, Historiographie espagnole moderne… , op.cit., p.430.

ردمد: ISSN 2602-618X

الأطلس الكبير)، المتاخمة لإقليم سوس، ومن جهة الشرق (نهر أسيف المال)، الذي يفصله عن إقليم مراكش[13].

علاوة على هذه الإشارات الجغرافية، يُضيف الرحالة أن مجال إقليم حاحا، يطغى عليه الطابع الجبلي، حيث يُشير إلى أن المنطقة المذكورة، هي عبارة عن جبال عظيمة، ووعرة، وشاهقة جدا، وصخور مغطاة بالأشجار، إلى جانب هذه المعلومات التضاريسية، يؤكد صاحب التأليف أن إقليم حاحا يعرف تواجد بعض الشبكات المائية، مثل: الجداول، وبعض الأودية الصغيرة، وبعض العيون، بيد أن هذه الأخيرة، رغم أهميتها، تبقى ضعيفة، مقارنة بجهات أخرى من المغرب الأقصى[14].

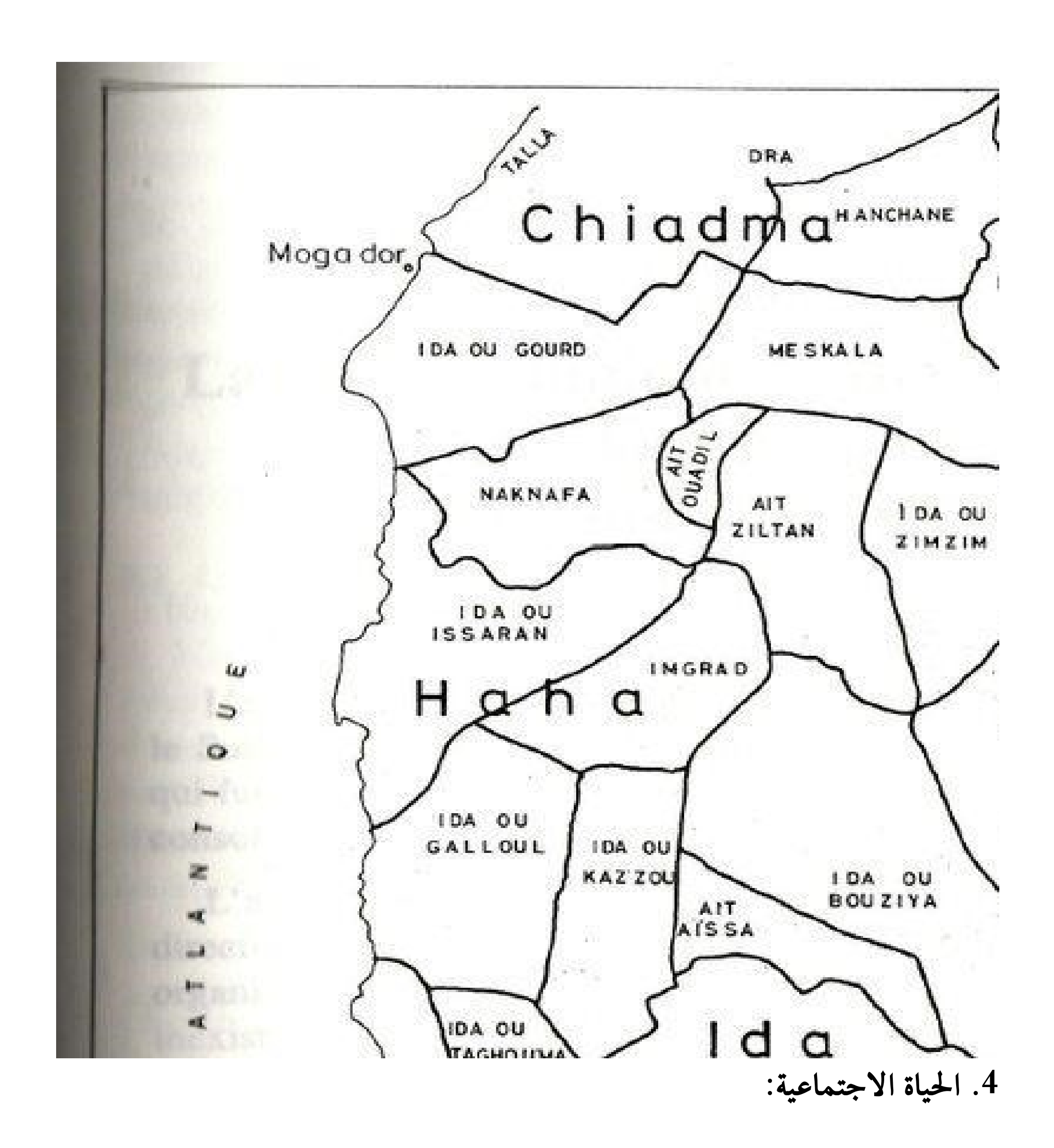
---

13 مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الثاني، ص.5.

14 نفسه، صص.5-6.

ردمد: ISSN 2602-618X

خريطة حول مجال إقليم حاحا



4. الحياة الاجتماعية:

ردمد: ISSN 2602-618X

تناول الرحالة والمؤرخ الإسباني كاربخال، جملة من القضايا، ذات البعد الاجتماعي، والاقتصادي، والعلمي، والديني، لإقليم حاحا، وهي تفاصيل، غلب عليها طابع التجسس، ومراكمة المعلومات، هي في المجمل، عبارة عن شتات من الأخبار، توحّدها رغبة استجلاء تاريخ أقاليم المغرب الأقصى، ورغم الطابع الاستعلائي، والمشاكل التي تطرحها مثل هذه الكتابات، من حيث موضوعيتها، وأحكامها المسبقة، والتي لا تعكس البتّة حقيقة الأمور، والتي أيضا، لا ترتبط ارتباطا عضويا مع الواقع التاريخي المغربي، إلا أنها في الحقيقة، تتضمن معطيات ومعلومات، بإمكانها أن تساعدنا لا محالة، في تعميق المعرفة التاريخية، حول المنطقة الحاحية، والمناطق القريبة منها بشكل خاص، والمغرب الأقصى بشكل عام. وكان بإمكان هذه البيانات النادرة، أن يطويها الزمن، وتحشر في غياهب النسيان، لولا أنه اختزنها رحالتنا في ذاكرته، ودوّنها في مؤلفه.

1.4. السكان:

حاول الرحالة الإسباني كرباخال، أن يقدّم مجموعة من التفاصيل، حول ساكنة إقليم حاحا، وخاصة تلك المتعلقة بالتوزيع الجغرافي، وعدد الكوانين أو الأسر، المشكّلة لكل قبيلة على حدة، كما أنه حاول أيضا، أن يُقدّم تفصيلات ومعلومات، تهم المجتمع الحاحي وخصائصه، الشيء الذي جعل كتابه، وثيقة إثنوغرافية، عظيمة الأهمية، تقوم على المشاهدة المباشرة، والوصف الدقيق لأحوال المجتمع الحاحي، الذي زاره الرحالة الإسباني، وخبر شؤونه عن كثب.

ومن بين الإشارات العديدة، التي سجّلها رحالتنا عن ساكنة إقليم حاحا، قوله إن ساكنة هذا الإقليم يحبون الحروب كثيرا، بل أكثر من هذا، فهم شرسون شراسة لم يكن مبالغا فيها تماما، حيث يعيشون حياة أقرب إلى الاستقلالية، أي أنهم "**يعيشون بلا رادع**

ردمد: ISSN 2602-618X

ولا شرطة"[15]، كما أنه يُشير أيضا إلى أن إقليم حاحا كثير السكان، يضم قرى كبيرة، ومدنا ضخمة، يعمُرها قوم مشاغبون، ومتوحشون سفهاء، ومحاربون أشداء، كانوا يتحاربون دائما قبل قيام إمبراطورية الشرفاء السعديين؛ لأنهم يعيشون حسب أهوائهم، لا يراعون فيما بينهم شريعة ولا عدالة، غير قابلين تحمّل أية سلطة تقمعهم![16].

غير أن الملفت للانتباه في هذا الجانب، هو تناقض معلومات الرحالة كرباخال، حيث يُشير في موضع آخر من كتابه، إلى أن ساكنة إقليم حاحا، بعد أن وصفهم بصفات "التوحش"، و"الشغب"، و"الشراسة"، و"البخل"، و"القسوة"، و"أعداء ألداء للأجانب"[17]، بأنهم متحضرون جدا، ويتقبلون الأجانب اقتبالا حسنا، ويخدمونهم ويعاملونهم معاملة جد حسنة، بل ويكرمونهم ويعاملونهم بسخاء[18]، أبعد من هذا، يُضيف رحالتنا أن الحاحيين هم أكثر الساكنة المغربية شجاعة، حيث يعتزون ببطولاتهم، كيف لا؟ ورجل واحد منهم يستطيع أن يحارب ألف رجل في بعض المسالك، ويُضيف بأن الإنسان الحاحي إذا لم يقتل اثني عشر أو خمسة عشر رجلا لا يُعتبر أبدا شجاعا![19]

علاوة على هذه المعطيات النادرة، يُبيّن الرحالة كرباخال، أن نساء إقليم حاحا، يتميزون بجمالٍ وجاذبيةٍ فريدةٍ، في هذا الصدد، يقول بكلمات مقتضبة، وتصوير بارع، ومعبّر: **"النساء [الحاحيات] جميلات، بشراتهن ناعمة بيضاء"**[20]، وحسب نفس الرحالة،

15 نفسه، ص.6.
16 نفسه، ص.8.
17 نفسه، ص.25.
18 نفسه، ص.18 وص.22.
19 نفسه، ص.17.
20 نفسه، ص.7.

ردمد: ISSN 2602-618X

دائما، فإن نساء مدينة أديكيس، هم الأكثر جمالا، وأناقة، وبياضا، وأكثر دلالا، وظرافـةً، في كل إقليم حاحا، فهن يعشقن الأجانب كثيرا[21]، وأمام هـذا الواقـع الاجتمـاعي، فـإن الرجال كانوا شديدي الغيرة[22]، حيث يلجؤون إلى العنف والبطش، خاصة إذا رأوا منهن خيانة، أو شيئا من هذا القبيل؛ لأنهن ميالات بطبعهن إلى الغرام، وما إلى ذلك[23].

وإلى جانب ما سبق، سجّل الرحالـة كرباخـال، معلومـات مهمـة، تتعلـق أساسـا بالطائفة اليهودية، التي استقرت في إقليم حاحا، حيث يُشير إلى أنه في مدينة تَدْنِسْتْ مثلا، توجد أكثر من مائتيْ دار لليهود، وكلهم يَعيشون في حي منعزل، وفق شريعتهم، ويؤدون للعامل مثقالا على كل رأس، فضلا عن الجبايات الاستثنائية، الـتي يـؤدي بموجبهـا كـل واحد، أكثر ممّا يؤديه عشرة من أغنى سكان المدينة، ومع ذلك فلا يسمح لهم بأن يملكـوا منازل أو تراثا، ولا أي عقار آخر مهما كان[24].

ويُضيف رحالتنا أيضا، أنه في جوانب مدينة تكَوليت، يوجد بيعة لليهود، يحيط بها أزيد من مائتيْ دار للتجار والصناع، وهم أغنى من يهود مدينة تَدْنِسْـتْ، الآنفـة الـذكر، ويعاملون أحسن منهم[25]، كما أنه يوجد في إحدى أطراف مدينة أديكيس، حـي لليهـود، يشتمل على أزيد من مائة وخمسين دارا، مجمل هذه الساكنة من التجـار والصـناع، وهـم أحرار في معتقداتهم الدينية[26].

---

21 نفسه، ص.16.

22 نفسه، ص.20.

23 نفسه، ص.7.

24 نفسه، ص.10.

25 نفسه، ص.14.

26 نفسه، ص.16.

ردمد: ISSN 2602-618X

2.4. السكن والمأوى:

اهتم الرحالة كرباخال كثيرا، بوصف المساكن والدور، الموجودة في إقليم حاحا، حيث يقول مثلا في معرض حديثه عن مدينة تكَوليت، إن هذه الأخيرة تتواجد فيها منازل عديدة مبنية بالتراب، ودون أي تنسيق، وهناك أيضا بعض المباني القديمة، المشيدة بالحجر والجير[27]، ويُضيف رحالتنا أنه في مدينة أديكيس، أيضا، يوجد أكثر من ألف دار جيّدة البناء[28].

كما لم يفت للرحالة كربخال، الحديث عن الأفرشة والأدوات المنزلية، التي تتضمنها منازل ودور إقليم حاحا، حيث يُبيّن في هذا الإطار، أن الأفرشة في إقليم حاحا، تختلف حسب التصنيف الاجتماعي، ففراش الأعيان يتكون من سرير، يوضع عليه بساط، وفي رأس السرير، وسادات طويلة ضيقة، مصنوعة من صوف، أو قماش غليظ، على خلاف عامة الناس، الذين يفتقرون للأسرّة، ويكتفون بحصير من الأسل، أو جلود الضأن، أو الماعز، ويتغطون بقمصان، أو سترات[29].

3.4. العادات الغذائية:

نستطيع القول من خلال ما توافر لدينا من معلومات ومعطيات، المستقاة من كتاب الرحالة الإسباني كرباخال، إن إقليم حاحا وأحوازه عرف خلال عهد السعديين، تراكما جد هاما على مستوى العادات الغذائية للساكنة المحلية، حيث أسهمت ظروف

27 نفسه، ص.15.

28 نفسه، ص.16.

29 نفسه، ص.7.

ردمد: ISSN 2602-618X

إقليم حاحا، الطبيعية والسوسيو مجالية، المتسمة بقساوة البيئة، وصعوبة المجال، في تشكيل نظام غذائي، يُلائم ظروف ونمط العيش في المنطقة المذكورة.

ويُلاحظ أيضا من خلال معطيات رحالتنا، أن الغذاء في إقليم حاحا وأحوازه، كان متنوعا إلى أبعد درجة، حيث نجد موادا استهلاكية، كثيرة ومتعددة، فإلى جانب الخضر بأنواعها المختلفة، تتوفر المنطقة على أشجار من مختلف أصناف الفاكهة، مثل: التين، والجوز، والكرم، كما أن المنطقة غنية بأشجار الأركَان[30]، الذي يُصنع من لوزها زيت مميز، له نكهة خاصة، والذي يُستهلك في المنطقة على نطاق واسع[31]، مما يجعله ثروة طبيعية لأهالي إقليم حاحا بامتياز[32].

30 **الأركَان:** هو عبارة عن شجرة، ذات تاج كبير ومستدير، لكن جدعها قصير وغير مستقيم، ومكسو بقشرة مشققة تشبه جلد التمساح. فروعه كثيفة وذات أشواك متعددة وصلبة. أوراقه ملعقية الشكل وشبه نفضية، إذ أنها تتساقط بعد مدة طويلة من الجفاف. أزهاره صغيرة وذات لون أبيض وتظهر في فصل الربيع لتعطي ثمرات عنبية، وحجمها أكبر بقليل من ثمرة الزيتون. ولزيت الأركَان استعمالات شتى في الحياة اليومية، لأهالي المنطقة الحاحية، فهو غذاء أساسي في طعام الإفطار ويدخل في تهيئ طاجين الغذاء، ويدهن به كسكس المساء كما تدهن به فتائل قناديل الإنارة، وتدهن به بعض الأخشاب والحطب، لتسهيل عملية اشتعال النار في الأثافي، ويدخل في كثير من عادات المنطقة الحاحية، فهو دهن للشعر عند الغيد، وهو رمز الخير الذي تحمله العروس إلى بيت زوجها. للمزيد من التفاصيل، انظر:

- عبد المالك بن عبيد، وسعيد أديوان، مادة أركَان، ضمن **معلمة المغرب**، (23 جزءً)، سلا: نشر مطابع سلا، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة النشر، الطبعة الأولى، 1410هـ/ 1989م، الجزء الأول، صص.322-324.

31 مارمول كربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الثاني، نفسه، ص.6.

32 محمد الزرهوني، **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر** (1280/ 1863-1290/ 1873)، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب

ردمد: ISSN 2602-618X

إضافة إلى هذه المواد الاستهلاكية، تُنتج المنطقة الحاحية كميات هامة من العسل والسمن، اللذان يستعملان عادة مع رغيف أو مع فطائر، تُصنع أساسا من مادة الشعير، أو بذلك الزيت الذي ذكرناه آنفا، بموازاة مع تقدّم؛ تستهلك ساكنة المنطقة لحوم الماعز وبكثرة، خاصة أمام ندرة الأبقار والأغنام، وهناك أيضا الحلوة المصنوعة من دقيق الشعير، المطبوخ في اللبن أو الزبد الطري، بيد أن الطعام الذي يتناوله الحاحيون بكثرة، وبنهم منقطع النظير، هو الكسكس[33].

ومن الإشارات الطريفة لدى كربخال، اهتمامه بآداب الأكل وتقاليد المائدة لدى أهل حاحا، وممّا أمكن التقاطه من إشارات في هذا الجانب، أن الحاحيين إذا أرادوا الأكل، جلسوا على الأرض، نساءً ورجالا، وإذا وضعت القصعة وسطهم، أخذ كل واحد منها بيده ممّا يليه أعني اليد اليمنى، معتقدين الأكل باليسرى خطيئة قاتلة، لأنهم يستعملونها عندما يستنجون، ولا يسمح لهم دينهم أن يأكلوا بالملاعق، وإذا ما انتهوا من الأكل، لحسوا أصابعهم، وفركوا أيديهم، الواحدة بالأخرى، أو حول السواعد، وبهذه الطريقة، ينشفون أيديهم؛ لأنهم لا يستعملون فوطا، ولا حتى مناديل، وعندما يغسلون أيديهم لا يمسحونها، وإنما يتركونها في الهواء حتى تجف[34].

4.4. اللباس:

والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم 5، الطبعة الأولى، 1998، ص.55.

33 مارمول كربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الثاني، ص.8.

34 نفسه.

ردمد: ISSN 2602-618X

سجّل الرحالة كرباخال، معطيات عديدة ومتنوعة، حول لباس ساكنة إقليم حاحا، فبالنسبة للباس الرجال، فغالبا ما كان عبارة عن نوع من الثياب، المصنوعة من الصوف غير الملبد، إضافة إلى إزار من نفس الثوب، يغطيهم من الحزام إلى نصف الساق، ويضعون على رؤوسهم عمائم، تُصنع من قماش القطن أو من الصوف، في حين نجد أن لباس النساء، يتكون من عباءات أو سترات، يطلقون عليها اسم (الحايك)، إضافة إلى قمصان من القماش، طويلة وعريضة جدا. أما لباس النسوة ذوي الجاه والحظوة، فإنه يتكون عادة من قماش، مخطط بالحرير، مربوط في صدورهن، بمشبك من الفضة[35].

5.4. الصحة والأمراض وطرق العلاج والتداوي:

لم يذكر الرحالة كرباخال الأمراض والأوبئة، التي كانت متفشية في إقليم حاحا، بيد أنه يُشير إلى أن الإقليم لا يتواجد فيه لا أطباء، ولا صيدليين، ولا جراحين، لكنه يسجّل أن ساكنة المنطقة، غالبا ما كانوا يتداوون من الأمراض، إما بالحمية، أو بكي العضو المصاب[36].

6.4. العادات الاجتماعية:

يتضح من خلال كتاب الرحالة كرباخال، حضور بعض العادات الاجتماعية، التي يظهر أنها كانت رائجة في إقليم حاحا، ومن بين هذه العادات المتنوعة، نجد على سبيل

35 نفسه، صص.6-7.

36 نفسه، ص.6.

ردمد: ISSN 2602-618X

المثال لا الحصر، عادة حلق الشبان رؤوسهم ولحاهم إلى أن يصلوا إلى مرحلة الزواج، وعندئذ يُعفون شعر اللحية، ويتركون ذاؤبة في أعلى رأسهم[37].

5. الحياة الاقتصادية:

1.5. الإنتاج الفلاحي:

يبدو من إشارات الرحالة كرباخال، أن إقليم حاحا كان يعرف في المجمل نشاطا فلاحيا وزراعيا بسيطا، إن لم نقل ضعيفا، نستشف ذلك بجلاء، من خلال كلام الرحالة، الذي يقول في هذا الصدد: **"لا يزرعون كروما ولا بساتين [...] كما أنهم لا يغرسون شجر الزيتون"**[38]، بيد أنه يُشير في موضع آخر من كتابه، إلى أن المنطقة الحاحية، ينمو فيها الشعير بكثرة، لكن القمح لا ينبت فيها أصلا[39]، ويُضيف رحالتنا أن فلاحي إقليم حاحا، غالبا ما يحرثون أراضيهم بواسطة الحمير[40].

إضافة إلى ما سلف ذكره، يُشير صاحب التأليف أن مدينة أكَوبيل رغم صغر حجمها، فهي تحتوي على مجموعة من الأراضي الصالحة للحرث[41]، كما أن مدينة الكَيل توجد فيها بساتين عديدة، وفيها أشجار كثيفة، أغلبها أشجار التين والجوز والكرم[42]، كذلك تعرف مدينة تكَوليت، مجموعة من البساتين والحدائق، التي تكثر فيها أشجار مثل:

37 نفسه، صص.6-7.

38 نفسه، ص.6.

39 نفسه، ص.5.

40 نفسه، ص.9.

41 نفسه، ص.12.

42 نفسه.

ردمد: ISSN 2602-618X

الجوز، والتين، والخوخ، والكروم[43]، ونفس الشيء ينطبق على كل من مدينة تانزيرا، التي يكثر فيها الشعير والدُّخن[44]، ومدينة تَدْنِسْتْ المليئة بالأشجار المثمرة، وبكل أنواع الخضر[45].

ومن الأنشطة الفلاحية الأخرى، التي يعتمد عليها سكان إقليم حاحا، هي تربية النحل، حيث يُبيّن رحالتنا أنها كانت من الأنشطة الرائجة في الإقليم، والتي كانت تشكّل موردا مهما بالنسبة للساكنة[46]، كما يُلاحظ من خلال بيانات صاحب التأليف، أن إقليم حاحا يعدّ إقليم الماعز بامتياز، فهو الأكثر انتشارا من بين باقي أصناف الماشية الأخرى[47]، ويكسبون من خلاله، أكبر ثرواتهم، أما البقر والغنم فهو نادر جدا في المنطقة، والسبب هو صعوبة رعيه في هذا الإقليم، الذي هو عبارة عن جبال وصخور، وعرة وصعبة[48]، أما البغال فهي الأخرى، نادرة في المنطقة، في حين نجد أن الحمير، هي الوسيلة الوحيدة، التي يلتجأ إليها فلاحو المنطقة، لحرث أراضيهم الزراعية[49].

2.5. النشاط الحرفي:

43 نفسه، ص.15.

44 نفسه، ص.25.

45 نفسه، ص.9.

46 نفسه، ص.22.

47 نفسه، صص.18-19.

48 نفسه.

49 نفسه، ص.9.

ردمد: ISSN 2602-618X

يتضح من خلال إشارات الرحالة كرباخال، أن إقليم حاحا كان يعرف تواجد مجموعة من الحرفيين والصناع، مثل: الإسكافيين، والخياطين، والحدادين، والنجارين، والصباغين، وعدد من الصاغة اليهود[50]، وقد ساعد على ازدهار هذه الحرف والصنائع، توفر المنطقة الحاحية على المواد الأولية المحلية، وعلى الأسواق التجارية[51]، التي ساعدت بشكل كبير، في تسهيل عمليات البيع والشراء بين الأهالي[52].

3.5. النشاط التجاري:

سجّل الرحالة كرباخال معلومات عديدة ومتنوعة، حول النشاط التجاري في إقليم حاحا، ومن بين المعطيات التي ذكرها حول الموضوع، شيوع تجارة النحل بسبب الكمية المعتبرة من الشمع المستخرج منها[53]، ثم تجارة الجلود التي كانت رائجة في كل نواحي المنطقة، حيث كان التجار الأجانب، يأتون من مختلف الدول الأوروبية لشرائها[54]، إضافة إلى الاتجار في العسل خاصة مع الأوروبيين[55]. وقد أسهمت الأسواق والمواسم في دينامية التجارة بإقليم حاحا[56]، حيث يُخبرنا رحالتنا أنه في مدينة أديكيس مثلا، يُقام فيها

50 نفسه، ص.9-10.

51 نفسه، ص.16.

52 محند أيت الحاج، **مظاهر الحياة الثقافية بحاحا وايداوتنان خلال القرن الرابع عشر الهجري 1301-1400هـ/ 1883-1979م**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1436هـ/ 2015م، صص.56-62.

53 مارمول كربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الثاني، ص.5.

54 نفسه، ص.6.

55 نفسه، ص.15.

56 محند أيت الحاج، **مظاهر الحياة الثقافية بحاحا...**، م.س، صص.61-62.

ردمد: ISSN 2602-618X

سوق يدوم حواليْ خمسة عشر يوما، ويقصده جميع السكان، حاملين معهم موادا عديدة، مثل: الصوف، والسمن، والزيت، والشمع، والأقمشة الخشنة، وأشياء أخرى مماثلة[57].

6. الحياة العلمية والدينية:

قدّم الرحالة كرباخال، بخصوص العلم في إقليم حاحا، معطيات شحيحة لا تسمح البتة بإعطاء تصور شامل، حول موضوع العلم والتعلم بالمنطقة المذكورة، ومّما سجّله رحالتنا في هذا الجانب، أن ساكنة الإقليم لا يعتزون بالتعلم، ولا يعرف أحد منهم القراءة، باستثناء بعض الفقهاء[58].

وما يزكي هذا التصور الأخير، إشارة الرحالة الحسن بن محمد الوزان، القائل بأن: **"التعليم غير معروف في هذه البلاد، فلا تجد فيها من يحسن القراءة"**[59]، بيد أنه في مقابل هذه المعلومات، يذكر الرحالة كرباخال، في موضع آخر من كتابه، أن المنطقة الحاحية تتواجد فيها مدارس عديدة للصغار والكبار، مليئة بفقهاء عارفين بأمور شريعتهم[60]، حيث يقصدهم الناس من كل ناحية، لدراسة الفرائض والحساب[61].

---

57 مارمول كربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الثاني، ص.16.

58 نفسه، ص.6.

59 الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، (جزءان)، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط.2، 1983، ج.1، ص.98.

60 مارمول كربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الثاني، ص.20.

61 عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع: مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، [تقديم عبد الرحيم بنحادة]، الرباط: مطبعة الأمنية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 67، الطبعة الأولى، 2012، ص.84.

ردمد: ISSN 2602-618X

أما ما تعلق بالدين والتدين في إقليم حاحا، فيشير رحالتنا أنه رغم كون ساكنة إقليم حاحا من المسلمين، إلا أنهم لا يعرفون من هو الرسول محمد (عليه السلام)، وما هي شريعته، بيد أنهم رغم ذلك يعملون ويقولون دائما، ما يسمعون من أقوال الفقهاء، وما يشاهدون من أعمالهم[62]. في مقابل هذا الكلام، يستدرك الرحالة كلامه بالقول إن ساكنة إقليم حاحا، يستمتعون كثيرا، وهم ينصتون إلى الأحاديث الدينية[63].

إلى جانب المعطيات السابقة الذكر، يتوفر إقليم حاحا على مجموعة من المساجد، لأداء الصلوات، وممارسة الشعائر الدينية، بيد أن هذه الأخيرة، يُلاحظ انطلاقا من شهادة كرباخال، أنها غالبا ما كان يلجأ إليها أهالي حاحا، خاصة عند حدوث الأخطار والنزاعات، وكأنهم يكونون في مأمن ضد القتال باليد، على حد تعبير كاربخال[64].

خاتمة:

يبدو من حصاد ما سلف، أن كتاب (إفريقيا) للرحالة والمؤرخ الإسباني لويس ديل مارمول كرباخال، نفيس ونادر، نظرا لما يزخر به من معطيات ومعلومات، قيّمة في غاية من الأهمية، من شأنها، إذا ما استغلت بالكيفية المثلى، أن تساعدنا لا محالة على ملأ الفراغ المعرفي، الذي تشكو منه الكتابات المحلية، المتميزة بالشح والابتسار، على صعيد عناصرها الإخبارية. وعليه، فالعودة إلى هذه الكتابات الرحلية الإسبانية، رغم نظرتها الاستعلائية، وأحكامها المسبقة، وخطابها الذي يشرعن للغزو والهيمنة، أضحت اليوم ضرورة ملحة، يفرضها البحث التاريخي المعاصر، من أجل الاستفادة منها، خاصة في

62 مارمول كربخال، **إفريقيا**، م.س، الجزء الثاني، ص.5.

63 نفسه، ص.27.

64 نفسه، صص.15-16.

ردمد: ISSN 2602-618X

مقاربة مواضيع وقضايا جديدة، تهم أساسا: التاريخ الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والديني. صحيح أن هذه الكتابات الرحلية الإسبانية، لن تمكننا أبدا من رسم صورة شاملة وكاملة وواضحة، حول تاريخ المنطقة وحضارتها، بيد أنها على الأقل بإمكانها أن تستكمل لنا بعض التصورات، وتسد بعض الفجوات، التي تعاني منها مصادرنا المحلية الكلاسيكية.

لائحة البيبليوغرافيا

أولا: المصادر والمراجع بالعربية

1- المصادر:

✓ كاربخال، مارمول، **وقائع ثورة الموريسكيين**، (جزءان)، [ترجمة وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن]، القاهرة: المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2012.

✓ كربخال، مارمول، **إفريقيا**، (3 أجزاء)، [ترجمة محمد حجي وآخرون]، الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1404هـ/ 1984م.

✓ الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، (جزءان)، [ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر]، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983.

2- المراجع:

✓ أيت الحاج، محند، **مظاهر الحياة الثقافية بحاحا وإيداوتنان خلال القرن الرابع عشر الهجري 1301-1400هـ/ 1883-1979م**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1436هـ/ 2015م.

✓ بنميرة، عمر، **النوازل والمجتمع: مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، [تقديم عبد الرحيم بنحادة]، الرباط: مطبعة الأمنية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 67، الطبعة الأولى، 2012.

ردمد: ISSN 2602-618X

✓ حركات، إبراهيم، **السياسة والمجتمع في العصر السعدي**، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، طبعة 1408هـ/ 1987م.

✓ زرهوني، محمد، **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر** (1280/ 1863-1290/ 1873)، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم 5، الطبعة الأولى، 1998.

✓ النفاتي، عادل، **المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغارب، حفريات في أدب الرحلة-القرن 16: في الهوية والتدين والثقافة**، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2015.

ثانيا: المراجع والمقالات باللغات الأجنبية

✓ Pablo Ignacio De Dalmases, **Viajeros por El Sahara Español: Antología de relatos viajeros**, Madrid: Grupo Editorial Sial Pigmalión, Primera Edición, 2016.

✓ Ismet Terki-Hassaine, "Historiographie espagnole moderne sur l'Algérie ottomane", In **Literatür Dergisi**, Cilt 8, Sayi 15, 2010, (pp.425-438).